

الصراع من أجل الوجود في رواية الأجيال العربية المعاصرة

أوراد محمد كاظم حمزة عبد الأمير حسين

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل

hamzaalameer2019@gmail.com

معلومات البحث
تاريخ الاستلام: 2020 / 8 / 25
تاريخ قبول النشر: 2020 / 9 / 9
تاريخ النشر: 2020 / 11 / 9

المستخلص

يرصد هذا البحث ما تتخذه الشخصيات الروائية، بوصفه نموذجاً للحياة الإنسانية الطبيعية والواقعية، من تقنيات واستراتيجيات دفاعية أو هجومية لأجل حفظ الذات واستمراريتها في البقاء ضمن عالم تسوده قوانين الطبيعة التي تشربتها روح الإنسان وطبعت بها، ف القانون الإنسان هو قانون الطبيعة وأخلاقها، وفي هذا العالم تسيطر الانفعالات وتتقدم الحيوانية العقل فتستبقيه مضمرًا أو تتخذه مطية لغاية واحدة هي الانتصار، بما يوفره (العقل) من ابتكار لأدوات القوة وصناعتها، فالعقل في عالم الطبيعة وأخلاقها لا يعقلن تلك الحياة والأخلاق، بل يخدمها كما هي دون أن يحدث من أثره الذي طبع الحياة ما بعد الطبيعية - بمعنى ما أتى بعدها وليس بمعنى ما وراءها- شيء يذكر.

الكلمات الدالة: الأجيال، الاعتراف، الصراع، الوجود، حفظ الذات، التنافس، الأناية، الحظ.

A Strife to Survive in the Novel of the Contemporary Arabic Generations

Awrad Muhammad Kazem Hamza Abdul Ameer Hussein

College of Education for Human Sciences /University of Babylon

Abstract

This research investigates what the fictional characters take, as a model for natural and realistic human life, in terms of defensive or offensive techniques and strategies for the sake of preserving the self and its continuity in staying within a world dominated by the laws of nature that have been imbibed and printed by the human soul, so the human law is the law of nature and its morals, and in this world it controls Emotions and animalism precede the mind, so it preserves it in its entirety, or takes it as a ride for one purpose, which is victory, with what (reason) provides in terms of innovation and manufacture of power tools. Reason in the natural world and its morals do not rationalize that life and morals, but rather serve it as it is without effecting from its effect that marked life beyond Naturalism - in the sense of what came after it and not in the sense of what is behind it - is something mentioned.

Key words: generations, recognition, conflict, existence, self-preservation, competition, selfishness, luck.

أولاً: حفظ الذات قانون الإنسان الأول:

تتغلب الغرائز والانفعالات حين يشعر الإنسان بالخطر يحذق به ويتهدد بقاءه الذاتي، أو جوهر هذا البقاء واستمراريته في ذريته التي انتسخ فيها روحه وتعاليمه، وأول تلك الغرائز وأقواها هي غريزة (حفظ الذات) التي يشترك فيها جميع الكائنات الحيّة، ولكنها أظهر وأقوى عند الكائنات التي تمتلك قدرة الصراع والاشتباك الجسدي وهي (الحيوان والإنسان)، وتسمى تلك الغرائز بالحيوانية باعتبارها سابقة للتطور العقلي للإنسان، فهي مشتركة بين الحيوان غير العاقل والإنسان العاقل، وإذا ما تهدد الإنسان بوجوده مباشرة فسيبرد بما يحفظ بقاءه من دون تفكير أو تأمل وإنما بالفطرة والطبيعة.

في رواية-رباعية- الخسوف لإبراهيم الكوني تتجلى قيم الصراع وأدواته واضحة عند إنسان الصحراء الذي يفترش الطبيعة ويسكنها كما تسكنه، ولا يتحدد هذا الصراع بين الإنسان والإنسان فقط، بل يتعداه إلى الصراع مع قوى الطبيعة وما يدب على تلك الطبيعة.

نجد الشيخ (أهر) وهو من الشخصيات المهمة في الرواية لمصاحبته للشيخ (غوما) الشخصية الرئيسية والمركزية التي تشترك بها وحولها معظم أحداث الرواية، نجده يتحدث عن طفولته وصراعه مع العقرب، إذ كان أهل الصحراء يعقدون مع العقرب عهداً من الأخوة يمتنع بعده أن يعتدي أحدهما على الآخر حفظاً للعهد: ((والسرّ ليس في طقوس التآخي التي تحتكم إليها كلّ أم في الصحراء لتحمي وليدها من هذا العدو فتطلب الحليب من ثديها في إناء وتلقي فيه بالحرشة وتتركها تسبح حتى الصباح فترمي بالإناء في كوم القمامة وتطلق سراح السجينة، فتربط بينها وبين الوليد بدماء الأخوة. ولكن السرّ هو في تنفيذ العهد الذي ينصّ بنده الأول على الإخلاص الأبدي للعقرب وعدم التعرّض لها بأي أذى))⁽¹⁾ ولكن ما حدث مع (أهر) وغيره من شيوخ القبيلة أنهم استجابوا لنداء الغريزة والخوف من فناء الذات، فقتلوا العقرب حفظاً لأنفسهم: ((هذا ما حدث مع أهر وخليل وشيوخ القبيلة وشبابها وكل من كلفت أمه نفسها إرضاع الحرشة في المهدي، فيأتي الشيطان في الصبا ويضع حجراً أو عصا في يد الفتى ويهمس في أذنه: "العقرب عدو الإنسان فإن لم تبادر بقتلها غدرت بك وتسللت إلى مرقدك في الليل فتقرصك في أذنك" تستيقظ غرائز الإنسان في الدفاع عن النفس فيلقم "أخته" في الرضاعة حجراً أو يهوي على رأسها بالعصا))⁽²⁾.

نلاحظ أنّ حفظ الذات من الفناء والخوف عليها هو أمر فطري نجده لدى الطفل كما نجده لدى الكبير، فهي من الغرائز التي أنبتها الخالق في نفس الإنسان: ((بني العالم على ثلاث قواعد: حفظ الذات، وحفظ النوع، وتحسين النوع، هذه هي الأوراق الثلاث التي يلعب بها العالم لعباته المختلفة في كل تصرفاته التي لا نهاية لها، وكل شيء في العالم من الحرشة الدنيئة إلى أرقى أنواع الإنسان يسعى إلى تحقيق وجوده الذاتي ووجوده النوعي))⁽³⁾. فالوجود مسخر بكل طاقاته ومكوناته لحفظ هذا التوازن في الحياة لحساب البقاء الإنساني واستمراره إضافة لبقية الموجودات الحيّة، ولتحقيق هذه الغاية فلإنسان حق استخدام كل الوسائل الممكنة للدفاع عن نفسه وعن بقاءه واستمراره في ذريته، ولكن قد يدفع الأب بذريته على طريق الموت لأجل بقاءه هو، فما نفع الفرع إذا مات الأصل، أو إذا لم يُضخّ به في سبيل طمع الجذر بالاستمرار بامتصاص أسباب الحياة وتوليدها، فالذي أخرج الفروع والأغصان قادر على أن ينبت غيرها أو أن يستبدلها بعد مماتها أو انكسارها، فما دام الجذر يتمتع بالحياة فإن توليد الفروع والأغصان ما زال أمراً ممكناً ويسيراً: ((أتلج صدره أن يرى ابنه الوحيد، الذي لم يضيق جهداً يُذكر لتربيته وقام عمه عنه بهذه المهمة، وقد تدرّب على استعمال السلاح فأيقن أنه امتلك أول أسرار الحياة في الصحراء... وبعد مرور شهر فقط على حفل العرس

وصل رسل الشيخ عبد النبي بالخبر لتجميع المقاتلين وحشد القوات لصد الغزاة عن واحات فزان... قرروا قبول مقاتل قادر من كل عائلة، ولكن غوما جاءهم وهو يجر جر خلفه ابنه الوحيد بعد أن انتزعه من فراش عروسه، قالوا له يومها: يا غوما يكفي أن نسجل ابنك ضمن قائمة المحاربين⁽⁴⁾ ولكن هذا لا يرضي الشيخ غوما المشوق للحرب والقتال وهو ما سيؤدي به إلى إلقاء ابنه الوحيد في مهالك الموت والفناء: ((لم يعلم أحد وقتها أنه يخفي حقيقة أخرى لم يقلها لأحد. لم يقل لهم أنه يبحث عن الغزاة في الحرب. ذلك الهاجس الذي يعذبه ويحرق قلبه طوال حياته وبحث عنه في غرامياته مع نساء القبائل المجاورة وفي خلواته الطويلة في الصحراء⁽⁵⁾) ونتيجة للحرب غير المتكافئة بينه وبين العدو الذي يتغلب عليه عدة وعدداً، حدثت الخسارة والانسحاب، ولكن غطاءه لكي ينسحب تحت رشق الرصاص المستمر كان جسد ابنه الوحيد الذي نازعه حتى على غالون الماء ليموت عطشاً: ((قال ابنه وهو يتراجع محتتماً بالمرتفع الرملي: إنهم يأمرؤن بالانسحاب. لا نستطيع أن نواجه القصف المدفعي في العراء. ثم بدأ يشتكي من العطش. تنازعا طويلاً حول غالون الماء، فانتهاز قناصة العدو الفرصة فأصابوه. لقد مات، لقد أصابته طلقة من قناص إيطالي في رأسه فخرقت الجمجمة وسال الدم تحت اللثام وتسالت خيوطه إلى الرمال العطشى. في الوقت نفسه ظلت قوات العدو تتقدم محتمية بالمدركات والمدافع فشرع غوما بأن المرتفع الرملي لن يحميه إذا اقتربت القوات أكثر من ذلك، فسارع يدفع بجثة ابنه فوق المرتفع صانعاً منه متراساً صغيراً بدأ يطلق منه النار عليهم حتى أحاطوا به من كل جانب⁽⁶⁾، ولا بد من أن نذكر بهذه المناسبة قوله تعالى: ((وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ⁽⁷⁾))، فهذه الصنعة وهبها الله لنبيه وسيلة لحفظ النفس العزيزة على الله خالقها، فهل تزول قدسية الإنسان بعد أن يتوفى الله النفس؟ جواب هذا السؤال سنجده لاحقاً عند مهمدو وحواره مع غوما حول التمثيل بجثة الطفل الميت!

تم أسر الشيخ غوما بعدما فرغت بندقيته من الرصاص، وأطلق سراحه بعد عدة شهور، والسبب في إلقاء العدو له على قيد الحياة هو إعجابهم لما صنعه من التضحية بابنه، وقد خاطبه القائد العسكري لتلك المنطقة قائلاً: ((أنت تعرف أن مصير أولئك العصاة الذين يقاثلوننا أمثالك هو الإعدام الفوري رمياً بالرصاص، ولكن شجاعتك وتضحيتك بابنك أدھلنتنا. سوف نطلق سراحك ولكن بشرط ألا تقاثلنا مرة أخرى... إن تقاليدنا الحربية تجبرنا أن نهب الطرف المعادي فرصة أن ينجو بحياته⁽⁸⁾) وقد انتزع الشيخ غوما تلك الفرصة عندما قدم ابنه أضحية من أجل البقاء.

يمتلك الإنسان كما الحيوان استعداداً لفعل أي أمر يقيه حياً في حالة نضوب أسباب الحياة الطبيعية، فلو كان غذاءه في يوم لا شح فيه ولا خطر هو لحم الحيوان وثمار النباتات، فإن له استعداداً لأكل لحم مثيله في النوع (إنسان×إنسان) وقد عُرف ذلك عند بعض الأقوام التي تسكن الغابات ويسمون ب (أكلة لحوم البشر)⁽⁹⁾، وبعضهم الآخر الذي يقدم الإنسان قرباناً على مذبح الأفكار وآخر على مذبح الآلهة، لئلا تغضب فتسلط عليهم أسباب الموت كالحروب والأمراض أو المجاعات أو الفيضانات أو الأمطار الغزيرة جداً أو انعدام المطر أو الزلازل والبراكين.

ذكرنا أن غوما جعل من جثة ابنه برزخاً بينه وبين رصاصات العدو عندما كان الأمر يتعلق بحياته (هو)، أما عندما يصدر من صديقه الحكيم والساحر (مهمدو) شيئاً مقارباً ولكن بجثة طفل: ((فاكتشف أهل الطفل الميت ما استرعى انتباههم عندما رأوا الدم متيبساً في الأصابع، ولما دققوا في اليد اكتشفوا أن يداً أئمة امتدت ونكلت بالجثة⁽¹⁰⁾) سنجد أن غوما يستتكره على الرغم من أن لـ (مهمدو) مبرراته أيضاً: ((أنت تعرف أنني لم أفعل ذلك من باب العبث أو التنكيل. كنت أجاهد جهاداً كي أنقذ الواحة من الحرائق و أتسول

لكم حتى يرق قلب الطبيعة⁽¹¹⁾، وعلى وفق أخلاق الطبيعة فالخير والصالح هو ما يحقق النفع دون النظر فيما قد يترتب عليه من ضرر بحق الآخرين، فلا وجود لمعايير أخلاقية ثابتة للخير المطلق، فلكل شخص معايير التي تتوافق مع منفعه الخاصة لحفظ الذات، وتسخير كل الوسائل الممكنة لضمان بيئة مناسبة لتحقيق البقاء، وقد أشار (هوبز) إلى الحرية اللامحدودة للإنسان، بما يتفق و حالة الطبيعة السابقة للعقد الاجتماعي أو حالة مخالفة شروط العقد ونقضها⁽¹²⁾، وعندما نشير إلى قوانين الطبيعة، فإننا نقصد تلك القوانين التي سبقت كل القوانين الوضعية المرتبطة بالنظام وتأسيس الدول والمجتمعات المدنية، فالقوانين الطبيعة اشتقت من وجودنا الأول عندما كان البشر يفتشون الأرض ويلتحفون السماء، ومما يميز تلك الفترة من حياة البشرية بحسب (مونتسكيو) هو انشغال الإنسان بحفظ حياته لا التفكير والتأمل في أصل وجوده⁽¹³⁾، والحق الطبيعي لا يمكن مصادرتة أو إسقاطه أو التخلي عنه⁽¹⁴⁾، وهو مستقل عن أي مؤسسة ولا حاجة للاعتراف به من أي طرف آخر خارج الذات المنتمية للطبيعة والمنفذة لإجراءات حفظ الذات واستمراريتها عبر الأجيال في كل زمان وأي مكان.

نجد أنّ شخصيات الرواية (غوما) و (مهدو) ومن خلال الحوار الذي يدور بينهما يمثلان طرفي الصراع بين رؤيتين أخلاقيتين قد تكونان متباينتين ولكنهما في المجمل يمثلان نسبية الأخلاق الطبيعية وغير المعيارية الأخلاقية، أو النظرة الذاتية للصالح والطالح، وهي نتيجة مباشرة للحرية المطلقة التي يتمتع فيها الفرد في حالته الأولى عندما يعيش في أحضان الطبيعة خارج القواعد والعقود العمومية للأخلاق المدنية والدولية، ونتيجة للمشتركات الأخلاقية والشخصية بين مهدو وغوما، فإنّ مهدو اختار الاعتراف لغوما بما فعله بجثة الطفل تنفيذا لمستلزمات طقوس استجلاب رحمة الطبيعة كما يدعي مهدو: ((مررت بأيام عصبية لاستدراار الرحمة واستعطاف الله والطبيعة))⁽¹⁵⁾ يعني ذلك أن الإنسان ومن أجل حفظ ذاته لم يدخر جهدا ولا فكرا أو خيالا في سبيل البقاء ومن تلك الأمور الشعائر والطقوس والسحر والأساطير كما ذكرنا آنفاً، و يبرز لدينا السحر بوصفه أداة عظيمة للتواصل مع قوى الطبيعة وغير المرئيات (الميتافيزيقيات)، وما يفعله البشر عبر التاريخ من تقديم للأضاحي وممارسة للطقوس ما هو إلا درءٌ لهذا الخطر الخفي الذي يتهدد بقاءهم واستقرارهم، وفي بيئة كالصحراء فإنّ الإنسان يقف عاريا أمام الطبيعة من مستلزمات تقيه قوة الغضب الذي يحل أحيانا عليه. وتتضح تلك الرؤية الأخلاقية عبر الحوار الاعترافي الذي توجه به مهدو إلى غوما: ((- نعم أنت الوحيد الذي أردت أن أعترف له بحقيقة ما حدث ذلك اليوم.

- هل تريد أن تقول إنك... أنت الذي اقترف تلك الجريمة البشعة؟

- ولماذا تُسمّي ذلك جريمة؟

- وماذا يمكن أن أسمى التنكيل بالجثث ونيش قبور الموتى؟

- هذه خرافات.

- كيف تُسمّي التمثيل بالموتى وإهانة المقدسات خرافات؟

- أنا أعني ما أقول. الشاة لا يهمها سلخها بعد ذبحها.

- الشاة لا يهمها سلخها بعد ذبحها! الإنسان كائن مقدّس وتشبيهه بالشاة تجديف في حق الخالق.

- إذا غادرتهما الروح فكلاهما جثة. والجثة نجاسة في عرف الله هكذا يؤكد القرآن

احتج غوما بعناد:

- لا شيء يبرر إهانة الموتى ورفس الأضرحة بالأقدام.

- لا يعدّ إهانة ذلك العمل الصالح الذي ينقذ الناس من الحريق. للعمل الصالح ثمنه، لا شيء بلا ثمن!

- لا يمكن أن يكون الإثم ثمناً للعمل الصالح.

- الإنسان شقي بطبيعته فلماذا لا نخفف عنه شقاه حتى لو اتخذنا الإثم كما نقول، أداة في هذا السبيل؟
- هذا فطيع...))⁽¹⁶⁾. ونود التذكير أن قول مهمدو (الشاة لا يههما سلخها بعد موتها) يتطابق ومنطق غوما الذي تسترّ بجثة ابنه عن رصاص الأعداء، ومن ثم فإن النجاة وحفظ الذات لا يقف أمامها قوانين أو أخلاق ولا منطق يحكمها سوى النجاة بالنفس من الموت مهما كلف الأمر، ولو بهلاك الدنيا ومن عليها قاطبة.

يتداول الناس قولاً مأثوراً أنّ (الحاجة أمّ الاختراع)، وإذ كنا نتفق معهم في ذلك، فإنّ أمّ الحاجات هي (حفظ الذات)، ولأجلها فعل الإنسان منذ وجوده كل شيء تقريباً، فالحاجة لحفظ الذات أو النفس حفّزت لدى العقل الإنساني الدافع للاختراع والابتكار والاكتشاف. وقد دلّت على ذلك الحفريات الاستكشافية للحضارات القديمة لاسيما في آسيا، إذ عُثِر على كثير من أدوات الصيد والزراعة والحرب⁽¹⁷⁾، وكان لهم تقنياتهم التي ساعدتهم على إقامة البيوت أو المساكن أو إنتاج مستلزمات الوقاية المختلفة⁽¹⁸⁾. كذلك فإن الحاجة لحفظ الذات زوّدتهم ببعض ما نسّميه نحن (الشروع) كالاختيال والتكرّر والغش والكذب، ومنه حكاية (الراعي والتجّار) التي يصفها مهمدو بالأسطورة التي تتوارثها الأجيال، إذ ورثها مهمدو عن معلميه، وبدوره يروي لنا تلك الحكاية: ((إنّ الواحة شهدت ثلوجاً عنيفة هطلت شهوراً كاملة منذ مئات الأعوام. وامتدت فشملت القفار المجاورة، بل وتجاوزتها فشملت الصحراء الكبرى من أقصاها إلى أقصاها. جرّت تلك الموجة من الثلوج نكبات على القوافل فهلكت قطعان المواشي والإبل... أما التجّار فهلكوا ولم يسلم منهم إلا القليلين الذين اهتدوا إلى حيلة أنقذتهم من كارثة الصقيع مثل الراعي الحكيم الذي تتردد قصته حتى يومنا هذا. تقول القصة أن الراعي اقتطع جزءاً من قطيعه وقرر أن يسوقه أو يقيضه ببعض البضائع فانضم إلى قافلة متجهة نحو تامنغست ومنها إلى تمبكتو. وقد أدركتهم موجة الثلوج الخرافية... اندس أثرياء التجار خلف بطاطين الصوف والأردية السميكة الفاخرة وهم يصطفقون. أما الراعي اليائس الذي لا يملك غطاء غير السماء فقد سهر الليل كله وهو يدحرج صخرة كبيرة إلى قمة الجبل، حتى إذا اقترب من القمة ترك الصخرة تتدحرج نحو السفح فيركض وراءها ويعيد دفعها إلى أعلى مرة أخرى. استمر يعارك الصخرة حتى الصباح عندما وجد جميع التجار جثثاً هامدة بعد أن جمّد الثلج القاتل الدماء في أجسامهم... ولم ينج من البلاء في تلك القافلة سوى الراعي. ابتدع بعض سكان الواحة أسلوباً مماثلاً لحماية أنفسهم من تلال الثلوج ففضوا الليالي والأيام يتبارون في المصارعة ويهرولون... ولا يعلم أحد عما إذا كان ثمة حكماة في الواحة أشاروا عليهم بهذه الحيل أم أنّ الدفاع عن النفس في وجه الفناء هو صاحب الابتكار))⁽¹⁹⁾. فصخرة الراعي تعني الحياة وهي رمز الجدوى من العمل وإن تكرر، فصراع الراعي مع الصخرة هو صراع مع الحياة ومن أجلها، وقد انتصر الراعي في نهاية هذا الصراع واكتسب الحق في الحياة. أما صخرة سيزيف الأسطورية فهي رمز العبث وعدم الجدوى من العمل والحياة، فرغ سيزيف المستمر للصخرة يعني أن أعمال الإنسان ووجوده رهناً بهذا التكرار العبيث والخالٍ من المعنى وغير النهائي، إذ إنّ صراعه مع الصخرة لا ينتهي وهو يعلم بذلك وعلى الرغم من علمه به فإنه يستمر بهذا العمل، أي إنه وعند القيام بفعل الصعود والهبوط حدث لديه حالة الوعي بشقائه وبؤسه، وأن نتيجة عمله ستكون عدم تحقيق شيء، وهذا عقابه وعذابه ومأساته بحسب وصف (البير كامو) لحالة سيزيف⁽²⁰⁾، فما يزيد الأمر سوءاً هو الوعي بسوءه وقد ذكر (ماركس) مثل ذلك بقوله: ((يجب جعل الاضطهاد الواقع أشدّ وطأة بأن نضيف إليه وعي الاضطهاد))⁽²¹⁾. أما ما يتعرّض له سيزيف فقد جعله أكثر اقتناعاً بالأصل البشري لكل ما هو بشري، وهو من يخلق مصيره بنفسه وتلك سعادته التي تثبتق من صراعه مع الأعلى. يمكننا أن نصل بعد المقارنة بين حالة الراعي وحالة سيزيف، أنّ الراعي كان في حالة الاستجابة

البحث لغريزة البقاء ولم يكن في حالة تسمح له بالتفكير والتأمل في وجوده والوجود، كما وأنه يعي وقتية الحالة التي يمر بها، أضف إلى ذلك أن نصر البقاء وحفظ النفس الذي حققه نصر جزئي وطارئ، يخضع لدورة الحياة اليومية دون اكتراث بما هو طارئ ووقتي إذ الوجود يغرق في لا جدوى وجوده.

إذاً لكل فرد وجهة نظر خاصة فيما يمكن أن يعدّ عملاً صالحاً أو لا، وبحسب الموقف الذي يكون فيه الفرد، فلو كان في موقف دفاع عن النفس مثلاً لوجدته يتخذ كل السبل المتاحة لينقذ نفسه، فيعدّ ذلك الأمر في ذاته صالحاً ونافعاً وخيراً، باختلاف الوسائل توحيده الغاية (البقاء).

لم يبق الإنسان في حدود الوسائل البدائية والغريزية لحفظ ذاته، بل طوّر تماشياً مع ظروف بيئته وتكيفاتها، تقنياً وأسالياً متطورة للبقاء تتعدى مجرد حفظ الذات الآني إلى تأمينها المستقبلي، وهذا التطور الحاصل في أساليب البقاء إنما هو صنيع الطبيعة في الإنسان و (إغوائها) له، وهو ما سيوضح لدينا في الفقرات القادمة من البحث.

ثانياً- الأثانية - المنافسة - العدوان:

حياة الإنسان خارج دائرة الجماعة المنظمة متمركزة في الأنا، أي أن الإنسان مشغول بنفسه وتلبية حاجاته وتوفير سبل بقائه هو فقط، دون أن يكون للآخر أي دور في حياته، فالأثانية تتغلب على الإيثار والنظر في مصالح الآخرين، وينتج عن ظهور الآخر في حياة الفرد المنافسة، فعندما يشترك شخصان أو أكثر في طلب الشيء نفسه أو الرغبة فيه مع محدوديته أو ندرته أو تفرده، فإن مجموعة الأشخاص سيدخلون في حالة صراع تنافسي لأجل الحصول على ما يرغبون به، والشيء المرغوب به يصبح من نصيب الأقوى.

لا يقتصر الصراع على الغرباء فقط، بل يحدث بين جميع البشر، فالأخوة يتنافسون لنيل المكاسب والتميز والقرب من الأب، ونجده واضحاً في رواية -خماسية- (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف، فالتنافس القائم بين أولاد (متعب الهذال) للظفر برعاية الدواب وسقيها يأتي لإثبات القوة الذاتية والإعلان عن تميز الأنا، لذا يتصرف (فواز) بأثانية ويرفض طلب أمه منه لأن يصطحب معه أخيه: ((ومعنى أن يأخذ فتى في مثل عمره عدداً من الدواب بمفرده، أن يكون قوياً ومهراً، لأن وقت الغروب في وادي العيون، حيث تأتي الدواب لتستقي، من أصعب الأوقات وأكثرها مشقة وخطورة، إذ إضافة إلى ضرورة الوصول إلى العين في وقت مناسب، فإن السيطرة على الحيوانات وعدم اختلاطها، وما يرافق ذلك من مناقشات، وبعض الأحيان من نزاع، لا يقوى عليها إلا الرجال أو الفتيان الأقوياء، وكثيراً ما تطلب الأمر وجود أكثر من شخص واحد لكي تجري السقاية بسرعة ودون ضرر. لذلك حين طلب متعب الهذال من ابنه الذهاب بمفرده، شعر فواز بالزهو والتحدي، أما حين أشارت أمه إلى أخيه إبراهيم، والذي يصغره بسنة، أن يذهب معه، فقد رفض فواز بإصرار، قال بما يشبه التحدي:

- وحدي، ما أريد أحداً وأرجع قبل الجميع))⁽²²⁾. فيروز ضمير (الأنا) في خطاب (فواز) وتحديه وقوته تجعلنا نشعر معه بأن رجلاً قوياً وخلقا يقف أمام أبيه وأمام المخاطر، متحدياً بأثانية أمه وأخوته، لأنه من دون هذه (الأنا) لا وجود له ولا فرادة: ((والأنا الذي نتحدث عنه، حين نستنكر الأثانية لا وجود له على الإطلاق))⁽²³⁾، ولا استقلالية له ولا حرية مطلقة يتمتع بها إذا تم إقصاء أناه الأثانية واستبدلت بضمير الجماعة المندمجة (نحن)، والشاب الذي يتمتع بالقوة والعافية من الأمراض يمثل قوة الطبيعة في أحسن حالتها، فلا مجال للضعف والضعفاء في عالم عدم المساواة المتوافق مع أخلاق الطبيعة، وفي هذا العالم لا

يتوقف الأمر على صراع الإنسان من أجل البقاء والمعيشة، بل يتعدى ذلك إلى البحث عن الترقّي والاستمتاع باعتباره -الإنسان- منتجاً لا مستهلكاً فقط وهو ما عدّه (انجلز) دليلاً على أن الصراع إنما هو (طبيعي) وليس صراع على البقاء⁽²⁴⁾، ولكن ما يهمنا من هذا أن الأناية متأصلة في الإنسان وباعثة على التنافس سواء كان تنافس فردي أو تنافس جماعة ضد جماعة، وهو ما تضمنه طبيعة الإنسان الأناية في عالم تحكمه التنافسية الشديدة وبلا شفقة.

شعار الإنسان غير الأخلاقي (في هذه الحياة كل ما ليس أنا خصمي!!)، وإنّه لشعور لذيد ومفرح أن تتخلص من هذا الخصم بالقتل أو التدمير والتشهير، وقد بلغ هذا الإحساس قمته لدى (الحكيم) وهو الشخصية المقربة من السلطان (خزعل) -في رواية مدن الملح- ويعتبره السلطان مستشاره الأول ومؤتمن أسراره، ومدبر أموره الشخصية أو ما يتعلق منها بشؤون الحكم: ((شعر الحكيم بالزهو والقوة عندما تخلص من هذا الخصم، لقد انتظر طويلاً إلى أن جاء الوقت المناسب، وحين جاء لم يرحم ولم يتسامح "سيكون أمثلة للآخرين، ويجب أن يعرف الجميع من هو الدكتور المحلجي" هكذا قال لنفسه بنوع من الفخر))⁽²⁵⁾. ففي الحرب لا رحمة ولا تسامح، بل قد تصل رغبة الإنسان للتخلص من خصمه ومنافسه على الثروات والإمرة والشرف أو المكانة إلى درجة من الوحشية تفوق كل التصورات ومنها القتل والتعذيب والتمثيل بمن يعتبره عدواً له، رغبة منه لإرهاب الآخرين ومنعهم من التعرض إليه أو تكرار الاعتداء.

في رواية ثلاثية غرناطة، يتعرّض سعيد للاعتقال من قبل القوات القشتالية، فيعد سيطرة المملكة الإسبانية الكاثوليكية على الأندلس، أصبح كل عربي في المدينة خصماً لجند الملك الأسباني، باعتبار العرب والمسلمين منافسين له على الأرض والثروة والسلطة، لذا يطمح الملك الأسباني لإزالة الخصم واجتثاثه من أصله بأي وسيلة، ففي معركة البقاء على هذه الأرض حقق العرب المسلمين أيام قوتهم النصر، أما الآن وقد ضعفوا وتشتتوا فإن صراع البقاء يتجدد ليعيد الكاثوليك الأسبان سيطرتهم على غرناطة وبقية المدن المحيطة بها، وكل من أعلن المواجهة والمقاومة تعرّض لأشد أنواع القتل والتعذيب، وهو ما جرى على سعيد عندما تمّ القبض عليه: ((بحاصرك المحققون المتسربلون بالأسود، تنفذ نظراتهم إلى روحك ويطلقون عليك أسلثتهم وآلات التعذيب، يشدون وثاقك إلى ذلك السلم الخشبي، ويضخون الماء في جوفك، الماء الذي يروي، ماء الله الزلال، الذي تطلبه نفسك حاللاً، يدخلك نارا موقدة. تمتلئ، تنتفخ، تختنق، تستعصي الصرخة ولكنها تلج فتطلع حشرجة كأنما هي الروح تخرج في عناء... وقلوبهم مدرعة بالثياب السوداء، الأسيخ المحمّاة تحرق باطن قدميك، والحجارة الساخنة تلهب ظهرك وبطنك وعجزك، والآلة الخشبية تختزل جهنم في دولابها الضاغط الذي يسحق عظامك فتخور كثور ذبيح))⁽²⁶⁾.

قراءة متأنية للتاريخ تكشف لنا أن تلك العمليات المتعلقة بقتل المنافس أو من يعد عدواً تكررت عبر التاريخ ومنذ القدم، لأنها من طبيعة الإنسان عندما يمتلك أدوات القوة والتحكم، أو عندما يشعر أنه مهدد بالخطر من قبل الآخرين، أو أن يؤخذ منه ما يعتقد أنه ملك له أو يطمع في أن يصبح ملكه: ((إنّ التنافس على الثروات أو الشرف أو الإمرة وغيرها من السلطات يُنتج ميلاً إلى النزاع والعداوة والحرب، لأن سبيل المنافس إلى تحقيق رغبته هو قتل الآخر أو إخضاعه أو هزيمته أو طرده))⁽²⁷⁾، وينتج عن الأناية القسوة، ويعتقد بعض العلماء أن هذه الأناية عبارة عن ميل جيني في الإنسان يطورها الإنسان ويحتاجها في البقاء⁽²⁸⁾، فالأناية وفقاً لهذا الرأي مكنت الإنسان عبر ملايين السنين من البقاء رغم أنه في عالم شديد التنافسية ((ولا بدّ من التأكيد أنّ الأناية المطبوعة بانعدام الشفقة هي ميزة طاغية يتوقع توافرها لدى الجينة الناجحة. وفي العادة ستؤدي أناية الجينة إلى تعزيز الأناية في السلوك الفردي))⁽²⁹⁾، إضافة إلى تحفيز

النزعة الانتقامية والثأرية والعدوانية في مواجهة محاولات التقليل من (أنا) الإنسان أو استهداف منجزاته وإفشالها.

يأمر القائد العسكري (بورديلو) وهو ضابط في القوات الإيطالية المستعمرة لليبيا، بجمع عدد من القوات الهجينة أو المرتزقة ليغزوا بها الحبشة، وما إن وصلت جيوشه إلى هناك إلا وتم إبادتهم من قبل الزوج الأحباش، وقد تعرض نتيجة لفشله في غزو الحبشة إلى التوبيخ الشديد من قبل قادته الأعلى رتبة، وتطبيق عقوبة السجن بحقه. وقد تسبب ذلك بعودته إلى الواحات حاقداً متعطشاً للانتقام، فقام الكابتن (بورديلو) بإعادة تجميع المقاتلين للمرة الثانية، ليعوض فشله الأول لغزو الحبشة، وكان ضمن صفوف الحملة الثانية (آجار) الذي خطفه (بورديلو) من خيمته في الصحراء وجلبه معه إلى معسكر غزو الحبشة، وفي مدة وضعه مقيداً في المعسكر، علم (آجار) أن هذه الحملة الثانية الموجهة للحبشة بعد فشل الحملة الأولى لغزوها، فأعلن (آجار) التمرد ورفض تنفيذ أوامر (بورديلو)، وقلده بقية المجندين بالعصيان وأعلنوا التمرد وعدم الانضمام للفرقة، لذا قرّر (بورديلو) تعريض (آجار) لعدة أنواع من العذاب كالتجويع والتعطيش والإذلال ونشر الشائعات المهينة عنه ك (أكله للحم الخنزير وشرب البول)⁽³⁰⁾. وفي أحد الأيام وبعد ذهاب (بورديلو) لصيد مزيد من المتطوعين في الصحراء: ((انتهمز آجار الفرصة وثأر لنفسه من الكابتن. وجد نفسه من دون أن يدري يخطط لتمرد حقيقي. ولم يكن يستطيع أن يفعل ذلك لو لم يجد الجو مهيئاً في المعسكر. فساد التمر... خفقوا الحرس ونكلوا بالعسكر نهبوا السلاح وهاجموا المركز في قلب الواحة))⁽³¹⁾.

أما ما جرى على (بورديلو) نتيجة للتمرد الذي قام به (آجار) وفشل الحملة الثانية هو الآتي: ((اعتقل بموجبها وجرّد من صلاحياته العسكرية واقتيد في سيارة خاصة إلى طرابلس ليملك في الحبس هناك قرابة الثلاثة أشهر))⁽³²⁾، وجميع ما ذكرناه حول العلاقة بين (بورديلو) و (آجار) الواردة في رواية الخسوف، إنما أردنا به التمهيد لما سيأتي بيانه من وحشية الانتقام والقسوة المفرطة التي ثار بها (بورديلو) بعد إعادته للجيش من (آجار) الذي تسبب له بالفشل المهني و لطالما كان (بورديلو) يفخر بنفسه ويساويها بالقيادة العظام، لقد أصابه (آجار) بشرفه وسلطته، وبذلك فقد هيج الحيوان الرابض في قلب الإنسان ونفسه، إذ جاء بمجموعة من الزوج و هجموا على الصحراء وخيمة (آجار): ((حرقوا الخيمة الوحيدة واتفقوا مخزون القمح والشعير والتمر... اندفع ثلاثة من الزوج واعتقلوا المرأتين. قيدوا رجليهما وأيديهما وسدّوا فمهما بالخرق التي اقتطعوها من أكياس الخيش... ربطوا المرأتين متجاورتين في العراء. شدوا أيديهما وأرجلها إلى أوتاد ثبتوها في الأرض. التفتوا إلى الأنعام الوديعه التي وقفت خائفة... ضغط أحدهم على الزناد وتبعه الآخرون. وجدوا أنفسهم يحصدون الحيوانات بالرصاص وينفذون مذبحه... ظلت بعض الرؤوس الجريحة والمكسرة القوائم تحاول جاهدة الإفلات من المذبحه لتسقط في بحيرات الدم وتنهض على قوائمها المحطمة. آجار رأى في ذلك اليوم حيواناته تبكي لأول مرة))⁽³³⁾. فلم يسلم من انتقامه النساء ولا الحيوانات ولا النباتات فقد أيقض شعور النيل من (أناه) وشرفه، غرائز الكراهية والعنف والعدوان، ما يعدّه (أينشتاين) -في مراسلة بينه وبين (فرويد)- شراً متأصلاً في الإنسان: ((إنّ الإنسان يضمّر الشرّ في داخله، ويحمل رغبة دفينه بالدمار، وهذا الميل يكمن في أعماقه غريزياً))⁽³⁴⁾، وهو ما يوافق عليه (فرويد) في ردّه على رسالته: ((فتظنون أنّ في أعماقهم تكمن غريزة الكراهية والتدمير التي تستجيب لهذا التحريض، وأنفق معكم في ذلك مجدداً دون قيد أو شرط، فنحن نؤمن بوجود هكذا غريزة في أعماق الإنسان))⁽³⁵⁾، ويمتلك الإنسان القدرة على القتل والرغبة فيه، فقط وفرّ له سبباً لذلك وإن لم يكن مقنعاً، فستجده يكشف لك عن الحيوان الذي بداخله، وهو الجزء الذي سيطر على (بورديلو) في انتقامه من (آجار): ((ارتفعت آهات أم آجار فأجابتها تازايت بحشرجة مكتومة

وحاولت أن تحرر يديها ورجليها... ويبدو أن أسنة اللهب حرقت الأم فحاولت أن تحتج. آجار لم يتحرك ولم يحتج، معلقاً في واجهة السيارة المكشوفة... كان أحدهم يحجل هنا وهناك ويقترّب من الأسيرتين المشدودتين إلى الأرض، وفي عينيه الجاحظتين يقفز الجنون والعنف... تقدّم حبشي آخر من الشاب المجذوب وبدأ يتسنّج بجواره ويردد خلفه الأزوجة البدائية الحزينة⁽³⁶⁾.

تستجلب رياح الشهوات والغرائز معها ممارساتها الطقوسية، فالرقص والغناء والدوران والموسيقى كلها أعمال للبهجة والغياب: ((دسا رأسيهما في دائرة الراقصين المتشابكين، ولكن غياب الأثيوبيين في الغيب منعهما من تنفيذ مهمتهما))⁽³⁷⁾، للاندماج وتخطي العقل، بالطوقس يعود مخلوق لبدائته، ولطبيعته بعد أن يعزل منه العقل، ويفصل عن نظام الأخلاق، عن النواهي والواجبات الدخيلة على الطبيعة والمقيدة لها أو المنظمة لعملها وخط سيرها في الحياة: ((ازداد الاحمرار في مقلتي الشاب الأثيوبي الهائج ومضى يؤدي طقوساً جنازوية بجوار النار. يدق على الطبل ويتميل خلفه رفاقه وهم يرددون الأزوجة الحزينة ويدقون الأرض بأقدامهم في إيقاعات منتظمة، متسنجة، عيفة... وكلما أكرمهم الملازم المساعد بكؤوسه كلما ازدادوا هياجاً وجنوناً وحرناً وغياباً في طقوس الأدغال. انتشى بورديلو أيضاً وطار عقله في رحلة الأحلام إلى الماضي، رأى نفسه يحتل عرش المجد ويتقمص شخص سيببون المهيب... المزاج الرائق دفع الكابتن لأن يهدي لجنوده قارورة كبيرة ليشاركوه فرحته هذه الليلة. ثم نهض وحجل محاولاً أن يقلد الأحباش في رقصهم الهيجي... النار فضحت تشوقهم فلمعت عيونهم بالرغبة والانتظار))⁽³⁸⁾.

بعد أن ينطفئ العقل في الإنسان يسهل على الطوقس وأدواتها كالموسيقى والأغاني والتراتيل أن تشفي الإنسان، وعلى الرغم من تشدد افلاطون ضد الفنون واللعب والغرائز نجده يعترف بقدرة تلك التراتيل والموسيقى والغناء على خلق حالة من التوافق في نفس الإنسان⁽³⁹⁾، وما هذا التوافق إلا من قدرتها على إعادة الإنسان إلى حالته الطبيعية التي دفنتها الثقافة والأخلاق، وأن تمدّه بالعزاء الذي يحتاجه للخروج من أزمته وتعاسته، وهذا بالضبط ما حدث مع (بورديلو) إنه يطلب بانتقامه من (آجار) الشفاء، يريد أن يتخلص من مرضه (هزيمته) التي أصيب بها بسبب آجار، ذلك المنافس البدوي الذي استطاع أن يتغلب على ضابط مثل (بورديلو) مع ما معه من مقاتلين، وسبب تعاسته وهزيمته سيكون ذاته سبباً لشفائه واستعادة ثقته بنفسه وقوته وشرفه وسمعته، إنه يطالب باستعادة شرف (أناه) ومكانته بتدمير المسئول عن تسبب لها بالجرح العميق: ((في تلك اللحظة اقترب الكابتن من أسيره ولفح وجهه بأنفاسه الكريهة وفي عينيه الثقيلتين نظرة همجية... ما رأيك الآن أيها المخرب؟ هل اعتقدت أنك ستقتل من العقاب إلى الأبد؟ هل ظننت أن بوسع صحرائك العارية أن تخفيك عني؟ أودعتني السجن وها أنا أعود لأبيض على رقبتك كالارنب. هه.هه.هه... نخسه بسبابته في صدره وانطلق في ضحكة عصبية وقحة فيها شيء ما شيطاني. حيواني))⁽⁴⁰⁾.

بعدها يبدأ أشد أنواع العذاب وهو الموجه إلى النفس والروح، إذ بتعريتهم لزوجته وتهديده باغتصابها جماعياً أمامه، ثم إجباره على الشرب والسكر وقتله لأمه بعد أن غاب عنه العقل بفعل المسكر، قد جعله كل ذلك في حضرة العذاب والألم المستمر: ((التقت نحو جنوده وصرخ معانداً ضحكة وحشية. افحصوا امرأته. أريد أن اعرف عما إذا كانت بدويته الحسنة حبلية. أريد أن أنال حقي من المجرم. سيجهضها له الأحباش الذين رفض أن يرافقني لمقاتلتهم))⁽⁴¹⁾، ((قفز الأثيوبي المجنون على تازايت ومزق الثوب على جسدها. تعالى هتاف الأحباش وطوقوا الضحية. واصلوا غيابهم في الوجد... شفاهم المفطحة يعلوها الزيد وعيونهم محتقة بالاحمرار والعنف. قفز الفزع من عيني تازايت... اقترب منه الكابتن ولفح وجهه بأنفاسه الكريهة، ورطن طويلاً. في عينيه حقد ونظرة همجية. ضحك فالتقط آجار هذه النبرة الحيوانية، الشيطانية في

ضحكته... مزق الأثيوبي الهائج حنجرته بصرخة وحشية وهجم على تازايت. انتزع قطعة أخرى من ثوبها فتعري نهدها الأيمن. تصاعد الفرع في عينيها وجاهدت كي تفلت من الوتد المشدود إلى الأرض⁽⁴²⁾.

لم تحتل نفس تلك المرأة البدوية الحرة أن يُنتهك جسدها وتغتصب، وأبت انتظار الموت، فألقت بنفسها إلى النار، مختارة أن تموت كما ماتت ملكة الهند المقدسة (بادمافاتي)*: ((السرعة التي فعلت بها ذلك هي التي أربكت الجلادين فلم يدركوها قبل أن تلقي بنفسها في النار. شعرها الكثيف الفاحم أشعث ومتناثر على وجهها وكتفيها. وجهها شاحب. الفرع يقفز من عينيها. لا. ليس الفرع. التحدي احتل محل الفرع والفم مليء بالخرق المبتلة. وقفت في قلب اللهب، ورأى التحدي في عينيها لآخر مرة... استنشرت أسنة اللهب وهي تتمتع بافتراس اللحم البشري. انتشرت رائحة الشياطين قبل أن تسقط تازايت في الأتون⁽⁴³⁾). أرادت (تازايت) لهذا الجسد أن يتطهر مما لحق به من دنس بفعل الأحباش الهمجيين، فالنار قادرة على تطهيره وبعثه رماداً نقياً، فاختيار الموت بحرية خير من البقاء مع الذل والضعف وفقد مقومات (الأنا) الأنانية، علماً أن حرق الأجساد مشهد وطقس ديني قديم في الهند، والمرأة التي تحرق نفسها بعد وفاة زوجها تتال عائلتها حظوةً وشرفاً كبيراً، وقد ذكره ابن بطوطة فيما شاهده خلال رحلاته إلى الهند⁽⁴⁴⁾، فغريزة الحرية المنغرس في الطبيعة البشرية⁽⁴⁵⁾، جعلت (تازايت) المرأة التي تسكن الطبيعة وتشبعت بقيمتها حين لم تستطع الحفاظ على بقاء نفسها، ولم تستطع مواجهة قوة أكبر منها، أن تختار درب الشجعان والأحرار بإعدام النفس وأن تنتصر على عدوها بحرمانه من مس جسدها أو تعذيبه والتمثيل به، فالمنتصر القوي يميل لدمغ أجساد الخاسرين والضعفاء بعلامة نصره عليهم. لاسيما عندما يكون الصراع أو العدوان ناتج عن حق، والحقد توتر دائم ينتج عنه عدائية حادة⁽⁴⁶⁾، لا يمكن التخفيف والتفيس عنه إلا بالقتل والاعتداء: ((ازداد جنون الكابتن وانفتحت شهيته للعبث والتكيل. عطشه للتمثيل بضحاياه يتعاضم كلما ثمل وتناول كمية أكبر من الخمر. قفز إلى مخزون المؤونة وفتح قارورة جديدة. أشرف بنفسه يسقيها لآجار غصبا... إحساسه بالخفة والرشاقة أجم فيه الرغبة في أن يطلقوا قيده ليشارك الأحباش في الرقص بجوار موقد النار. لم تعد النار ناراً ولا الفحمة السوداء الراقدة في قلبها رفات تازايت... ولا الأم الراقدة بجوار الموقد أمه... كل شيء تبدل وتغير فأين هو يا ترى؟ وماذا يفعل؟ لا يدري كم مضى من الوقت قبل أن ينقطع خيط العقل. صحا فوجد نفسه نائماً في العراء. رأسه ثقيلة محطمة بالصداع... رفع رأسه. جلس كي يستعيد أحداث الليل. لاحظ جثة الأم مكومة على بعد خطوات من الموقد. لم تكن مقيدة إلى الأوتاد الأربعة كما توقع. ممددة على ظهرها مسبلة الجفنين⁽⁴⁷⁾)). سيعلم آجار فيما بعد من الشيخ الزرقان أنه قاتل أمه: ((قال الزرقان: لو كنت مكانك لاعتصمت بالجامع وصمت واصلت إلى الأبد حتى أكفر عن قتل الأم بد الالتجاء إلى الجلاد والذهاب معه إلى الحبشة للنثار من الأحباش الأشقياء! - قتل الأم؟! -

-نعم قتل الأم. قتلت أمك بيدك وجئت لتقول لي أنك دفنتها أيضاً بيدك. فهل أنت أنس أم جن⁽⁴⁸⁾).

لقد حصل (بورديلو) النرجسي الأناني على انتقامه من خصمه البدوي (آجار)، إذ أصابه بجرح عميق ودائم لن يُشفى منه أبداً، والانتقام يجلب الانتقام، كما أنّ العدوان والعنف يجر معه عدوان وعنف إضافي وآخر، يشكّل في تكراره وتناوبه ودورانه حركة التاريخ العودي للعالم أو الوجود منذ القدم وإلى ما بعد يومنا هذا.. وغدنا أيضاً؟

الأفعال التي صنعت التاريخ إنما حركتها (الأنانية)، قوة الأهواء والغرائز والميول الإنسانية، هذا ما اعتقده (هيجل) في فلسفته الجدلية للتاريخ⁽⁴⁹⁾، وهذا ما توصل له (الحكيم) كخلاصة لفترة وجوده ومعايشته للسلطان (خزعل) والحاشية وحتى أقرباءه والمتوددين إليه عندما كان لديه السلطة والقوة والمال والنفوذ،

ولكن بعدما أُبعد ونفي من كل ذلك وأصبح خارج لعبة السياسة والمال والنفوذ، وجد نفسه متأملاً عالمياً لم يكن ليراه بوضوح الرؤية من الخارج، فالانشغال والاختلاط مع هذا العالم من الداخل وبالعمق منه وبه أشغله وأعماه عن رؤية الأمور بكامل التفاصيل: ((كان يفكر بحياته كلها، يستعرضها بكل تفاصيلها من جديد، فلا يعرف أين أخطأ أو كيف، لكنه يمتلئ إحساساً أنه وحيد وأنّ الجميع تخلوا عنه "الناس لا يؤتمنون، الأنايية هي الموجه الأساسي والوحيد لتصرفات الإنسان، أي إنسان من أجل أن يكون أقوى وأغنى لا يتورع عن عمل أي شيء" وتمر الأطياف والأسماء "حتى الأقرباء، حتى اللي من اللحم والدم نسوا... ابتعدوا، كل واحد يا نفسي" ويحار في عواطفه وعلاقاته، ويمتلئ بالخوف والهواجس))⁽⁵⁰⁾، وأنايية (الحكيم) ومنافسته الشرسة للآخرين نفسها كانت سبباً في تقوية أسس حكم السلطان (خزعل) وإدخال وسائل الحداثة في بناء الدولة وتأسيس الجيش والمؤسسات المختلفة، وبذلك فإن المصالح الجزئية والخاصة كانت تصب في خدمة المصلحة الكبرى.

إن ما يعد جزئياً وفردياً أنايياً إنما يؤدي خدمة للكل، ومن طريق تحقيقه لغاياته فإنه يحقق الغاية الكلية التي سخرته لذلك بوعي منه، أو بدون وعيه وعلمه بذلك، وما هذا إلا نتيجة لكونه (عاقِل) وبهذا يختلف عن الحيوان الذي لا يتجاوز الحاجات والغايات الجزئية⁽⁵¹⁾، فإن يصدر الفعل عن الغريزة والأهواء لا يعني أن يُنتقص منه أو يقلل من شأنه وأهميته، إذ كان الأخلاقيون ينتقصون ويذمون ما يصدر عن الهوى والغرائز، فإن هيجل وبنظرة ميكافيلية للفضيلة جعله سبباً في علو شأن الفعل، لأنه ينتج عن القوة، ولا وجود للفكرة دون أن تسندها قوة تمنحها القدرة على الوجود⁽⁵²⁾، والحظ كذلك سيكون من نصيب الأقوى، فهو لا يساند ولا يقف إلا مع الأقوياء: ((فالتغَيّر هو طبيعة الحظ ودأبه ودينه. وهو في قلبه نفسه إزاءك إنما كان حافظاً لعهدته وثابتاً على مبدئه!))⁽⁵³⁾ والقوة كالحظ متقلبة ومزاجية هوائية لا ثبات لها ولا استقرار ولا تتبع قانوناً عقلياً محدداً وثابتاً، فهذا (أمود) يجرب حظه في تجارة الحطب: ((في الشهور التالية قرر أن يجرب حظه في تجارة الحطب... في الشهور الأولى من تأدية عمله الجديد ابتسم له الحظ وحالفه النجاح وكسب المال الوفير حتى ظن أن تجارة الحطب أشرف مهنة وهناً نفسه... ولكن الحظ الذي ابتسم له سرعان ما عبس وتجهم بعد أن تسابق الشباب من القبيلة وكذلك من الواحة في جلب الحطب وإغراق السوق... بل إن منافسيه قد تفوقوا عليه قبل إغراق السوق بعد أن استفادوا من أخطائه وأدخلوا تعديلات على البضاعة، منها تحويل الحطب إلى فحم وتخزينه لمواسم البرد في الشتاء))⁽⁵⁴⁾، وهكذا فالحظ لا صديق له بل هو في عقد دائم وأبدي مع القوة والشباب والقدرة على الابتكار والمنافسة وخوض الصراع دون كسل أو ملل أو خنوع، وإن يكون الحظ حليفاً للأقوياء والقادرين على المنافسة والصراع، فهذا يعني أن لا مكان للضعف وللضعفاء في عالم تحكمه آلهة القوة والحظ: ((أيريد الطمع البشري الدائم أن يُكرهني على ثبات ليس في طبعي؟ إنّ التغيّر جوهرى ولبابي، في التغيّر تكمن قوتي الحقيقية ولعبتي الدائمة))، لذا يخاف الحكام الحظ ويعلموا أن عليهم أن يُجاروا اشتراطاته، بالقوة والغلبة والمكر والأنايية والعدوان: ((على الحاكم أن ينام قبل الآخرين وأن يستيقظ قبلهم، لأنّ الذين يستيقظون مبكراً يستطيعون أن يفعلوا شيئاً: أن يمنعوا انقلاباً ضدهم، إذ يمكنهم أن يتحركوا بسرعة، وإذا لم يحالفهم الحظ، يكون لديهم متسع من الوقت لكي يتواروا عن الانظار، ليهربوا، وعند ذلك تكون أمامهم فرصة ثانية، أو على الأقل يمكن أن ينجوا بأرواحهم!))⁽⁵⁵⁾.

وفي حال فهم الإنسان لعبة الحظ، فإن مكاسبه وانتصاراته سترترف عالياً وتسود: ((قبل أن تنقضي السنة الثالثة على وجود حماد في القصر حصلت تطورات كثيرة: من رئاسة جهاز الأمن والسلامة وكالة إلى رئيس فعلي، ومن جناح في القصر إلى بناء مستقل، ومن الإقامة في موران إلى التجول في العالم والاتصال بالمؤسسات المماثلة والصديقة... وقد أبلغه الحكيم بالأمر قبل صدور الإرادة السلطانية. قال له في لحظة

تخيّرنا جيداً: بينك وبين السلطان يا حمّاد عشق، يحبك مثل ابنه.. وضحك ثم أضاف: ولا بدّ أنّ حظك من السماء.. أو أنك ساحره⁽⁵⁶⁾.

لذا عمل (حمّاد) على مساندة لعبة الحظ وتقلباتها الخطرة، وهو ما جعله يحافظ على مكانته في ظل السلطان فنر بعدما نفذ انقلاباً ناجحاً على أخيه السلطان (خزعل) عند سفره إلى ألمانيا مع زوجته الجديدة ابنة الحكيم وعائلته وبعض الحاشية: ((تطلّع فنر ملياً إلى حمّاد، وابتسم ثم قال بصوت متأمّر: ولأننا نثق بك يا حمّاد، وجربناك وعرفناك، فأريد منك تساعدي، وأريد أمون عليك، وأحمّلك فوق ما تحمل: مع الجهاز أريدك تكون وزير للداخلية⁽⁵⁷⁾، فلكي يواكب الإنسان عصره فلا بدّ من التكيف مع التغيرات ومسائرة طرق البقاء المتغيرة، لاسيما في حالة فقد قيم الاعتراف والقواعد الأخلاقية المعيارية للكسب أو النجاح والتفوق وتحقيق الغايات، وإذا ما وجدت هذه الأخيرة فلا بدّ من أخذ الطبيعة البشرية بالحسبان وعدم الركون للمثاليات ما فوق الإنسانية، ونظراً لكون الأنانية والمنافسة متأصلة في الطبيعة البشرية، فليس من الممكن التغاضي أو التقليل من أثرهما في السلوك الإنساني، وإنما بالإمكان عبر التربية والدين والثقافة والفلسفة والقانون، تزويد الأجيال بمضاد أو مرافق آخر للأنانية وهو الإيثار واحترام الآخر، وسيتبين لنا ذلك وكيفيته عند تناولنا للاعتراف ودوره في صناعة السلام.

هي حالة حرب الجميع ضد الجميع كما وصفها (هوبز)⁽⁵⁸⁾، ولا توجد ساعة صفر لبدء هذه الحرب لأنها بدأت فعلاً بولادة الإنسان ودخوله ميدان الحياة ومعتزكها الحتمي، وتنتهي بموته الحتمي أيضاً، فلا هو الذي اختار أن يولد ويكون ولا هو الذي سيختار موته وفناءه، وإن قيل أنه يستطيع أن يقرر موته بالانتحار مثلاً، فما ذلك الظن إلا ضرب من الوهم وسوء التقدير، لأن هذا الموت الذي يتوهم أنه وقع باختياره إنما هو ذات الموت، موت واحد وميتة واحدة.

الهوامش

- 1) الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، ج2: 220-221.
- 2) الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، ج2: 221.
- 3) فيض خاطر، أحمد أمين، ج3: 69.
- 4) الخسوف (البئر)، ابراهيم الكوني، ج1: 38.
- 5) الخسوف (البئر)، ابراهيم الكوني، ج1: 39.
- 6) الخسوف (البئر)، ابراهيم الكوني، ج1: 40.
- 7) القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية (80).
- 8) الخسوف (البئر)، ابراهيم الكوني، ج1: 40.
- 9) ينظر: أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، فردريك انجلز: 11-12.
- 10) الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، ج2: 163.
- 11) الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، ج2: 184.
- 12) ينظر: حقوق الإنسان الأسس والأصول الفلسفية، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي: 12-16.
- 13) ينظر: روح الشرائع، مونتسكيو، ج1: 14-15.

- 14) ينظر: فكرة حقوق الإنسان، تشارلز آر.بيتز: 58-59.
- 15) الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، ج2: 181.
- 16) الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، ج2: 183-184.
- 17) ينظر: الاكتشاف المجهض (العلم والإبداع في العالم الثالث)، سوزانثا غونا تيليك: 14 وما بعدها.
- 18) ينظر: التقنية والثقافة في العصور القديمة، سيرافينا كومو: 19. وينظر: أصل الأشياء بدايات الثقافة الإنسانية، يوليوس ليبس: 9، 51.
- 19) الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، ج2: 185.
- 20) ينظر: أسطورة سيزيف، ألبير كامو: 138-143.
- 21) إسهام في نقد فلسفة الحقوق عند هيجل، كارل ماركس: 6.
- 22) مدن الملح (التيه)، عبد الرحمن منيف، ج1: 31.
- 23) إرادة القوة، فريدريك نيتشه: 29.
- 24) ينظر: مشكلة الحياة، زكريا ابراهيم: 13.
- 25) مدن الملح (الأخدود)، عبد الرحمن منيف، ج2: 499.
- 26) ثلاثية غرناطة (غرناطة)، رضوى عاشور، ج1: 192.
- 27) الليفاثان، توماس هوبز: 106.
- 28) ينظر: العقل والطبيعة في عالم طبيعي، ريتشارد كارير: 462.
- 29) الجين الأناني، ريتشارد داوكنز: 11.
- 30) يُنظر: الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 147-158.
- 31) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 158.
- 32) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 158.
- 33) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 161.
- 34) الغريزة والثقافة، سيغموند فرويد: 130.
- 35) الغريزة والثقافة، سيغموند فرويد: 138-139.
- 36) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 165-166.
- 37) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 171.
- 38) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 168.
- 39) ينظر: الموسيقى في الحضارة الغربية منذ عصر الرومانيين حتى عصر الرينسانس (النهضة)، تر: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة)، ط1، 1985: 30-31.
- 40) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 168.
- 41) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 169.
- 42) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، ج4: 171-172.
- * بادمافااتي ملكة هندية وزوجة الملك راتان سينغ، اختارت الموت بعد أن هجم الملك المغولي علاء الدين خلجي على مملكة راجبوت رغبة بالحصول على ملكتهم فائقة الجمال بادمافااتي، وحين تمكنه من الاستيلاء

- على المملكة، تقوم بادمافاتي بحرق نفسها مع مجموعة من النسوة الراجبوتيات في أجواء طقسية تعرف بال (جاهيور) لئلا يتمكن علاء الدين ورجاله من تدنيهن أو أسرهن.
- (43) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، إبراهيم الكوني، ج:4: 174.
- (44) ينظر: المركزية الإسلامية، عبد الله إبراهيم: 153-152.
- (45) يُنظر: غريزة الحرية، نعوم تشومسكي (مقالات في الفلسفة والفوضوية والطبيعة البشرية)، تر: عدي الزعبي ومؤيد النشار: 19 وما بعدها.
- (46) ينظر: عنف الإنسان أو العدوانية الجماعية، فوستو انطونيني، 1989: 37.
- (47) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، إبراهيم الكوني، ج:4: 174-175.
- (48) رواية الخسوف (نداء الوقواق)، إبراهيم الكوني، ج:4: 180.
- (49) يُنظر: محاضرات في فلسفة التاريخ (العقل في التاريخ)، هيجل، تر: إمام عبد الفتاح إمام: ج:1: 50. ويُنظر: العقل والثورة، هيرت ماركيز: 228-229.
- (50) مدن الملح (المنبت)، عبد الرحمن منيف، ج:4: 190.
- (51) ينظر: محاضرات في تاريخ الفلسفة، هيغل: 40-41. ويُنظر: فلسفة هيجل (فلسفة الروح)، ولتر ستيس، تر: إمام عبد الفتاح إمام: 102.
- (52) يُنظر: الدولة والأسطورة، أرنست كاسيرر: 355-356. ويُنظر: العقل والثورة، هيرت ماركيز: 229.
- (53) عزاء الفلسفة، بوئتيوس: 85.
- (54) رواية الخسوف (الواحة)، إبراهيم الكوني، ج:2: 42-43.
- (55) مدن الملح (بادية الظلمات)، عبد الرحمن منيف، ج:5: 227.
- (56) مدن الملح (الأخدود)، عبد الرحمن منيف، ج:2: 203.
- (57) مدن الملح (بادية الظلمات)، عبد الرحمن منيف، ج:5: 237-238.
- (58) ينظر: الليفانان، توماس هوبز: 140.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. إرادة القوة، فريدريك نيتشه، تر: محمد الناجي، أفريقيا الشرق (المغرب)، ط1، 2011.
3. أسطورة سيزيف، ألبيير كامو، تر: أنيس زكي حسن، دار مكتبة الحياة (بيروت)، ط1، 1983.
4. إسهام في نقد فلسفة الحقوق عند هيجل، كارل ماركس، تر: هيثم مناع، منشورات الجمل، ط1، 1986.
5. أصل الأشياء بدايات الثقافة الإنسانية، يوليوس ليبس، تر: كامل إسماعيل، دار المدى (بغداد)، ط2، 2006.

6. أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، فرديريك انجلز، تر: أحمد عز العرب، دار الطباعة الحديثة (القاهرة)، ط1، 1957.
7. الاكتشاف المجهض (العلم والإبداع في العالم الثالث)، سوزانثا غونا تيليك، تر: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية (بيروت)، ط1، 1991.
8. التقنية والثقافة في العصور القديمة، سيرافينا كومو، تر: مصطفى قاسم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة-كلمة (الإمارات)، ط1، 2012.
9. ثلاثية غرناطة (غرناطة)، رضوى عاشور، دار الشروق (القاهرة)، ط14، 2014.
10. الجين الأناني، ريتشارد داوكينز، تر: تانيا ناجيا، دار الساقى (بيروت)، ط1، 2009.
11. حقوق الإنسان الأسس والأصول الفلسفية، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، توبقال (المغرب)، ط2، 2004.
12. الخسوف (الواحة)، ابراهيم الكوني، تاسيلي للنشر (ليبيا)، ط2، 1991، ج2
13. الدولة والأسطورة، أرنست كاسيرر، تر: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط1، 1975.
14. رواية الخسوف (نداء الوقواق)، ابراهيم الكوني، تاسيلي للنشر (ليبيا)، ط2، 1991، ج4.
15. روح الشرائع، مونتسكيو، تر: عادل زعيتر، دار المعارف (مصر)، ط1، 1953، ج1.
16. عزاء الفلسفة، بونثيوس، تر: عادل مصطفى، دار رؤية (القاهرة)، ط1، 2008.
17. العقل والثورة، هربرت ماركيوز، تر: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة (القاهرة)، ط1، 1970.
18. العقل والطبيعة في عالم طبيعي، ريتشارد كارير، تر: حيدر عبد الواحد راشد، دار سطور (بغداد)، ط1، 2017.
19. عنف الإنسان أو العدوانية الجماعية، فوستو انطونيني، تر: نخلة فريفر، معهد الإنماء العربي (بيروت)، ط1، 1989.
20. غريزة الحرية، نعوم تشومسكي (مقالات في الفلسفة والفوضوية والطبيعة البشرية)، تر: عدي الزعبي ومؤيد النشار، دار ممدوح عدوان (دمشق)، ط1، 2017.
21. الغريزة والثقافة، سيغموند فرويد، تر: حسين الموزاني، منشورات الجمل (بغداد-بيروت)، ط1، 2017.
22. فكرة حقوق الإنسان، تشارلز آر. بيتز، تر: شوقي جلال، عالم المعرفة (الكويت)، ط1، 2015.
23. فلسفة هيجل (فلسفة الروح)، ولتر سنتيس، تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير (بيروت)، ط3، 2005، ج2.
24. فيض خاطر، أحمد أمين، كلمات عربية ومؤسسة هنداوي (القاهرة)، ط1، (2012)، ج3
25. اللفيانثان، توماس هوبز، تر: ديانا حبيب حرب وبشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث-كلمة (الإمارات)، ط1، 2011.
26. محاضرات في تاريخ الفلسفة، هيجل، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات (بيروت)، ط1، 1986.
27. محاضرات في فلسفة التاريخ (العقل في التاريخ)، هيجل، تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير (بيروت)، ط3، 2007، ج1.

28. مدن الملح (الأخدود)، عبد الرحمن منيف، المؤسسة العربية (بيروت)، ط11، 2005، ج2.
29. مدن الملح (النتيه)، عبد الرحمن منيف، المؤسسة العربية (بيروت)، ط11، 2005، ج1.
30. المركزية الإسلامية، عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي (المغرب)، ط1، 2001.
31. مشكلة الحياة، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر (مصر)، د.ط. د.ت.
32. الموسيقى في الحضارة الغربية منذ عصر الرومانيين حتى عصر الرينسانس (النهضة)، تر: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة)، ط1، 1985.